بصائر المعرفة القرآنية

قرآن يتلى لإنسانية ترقى

المقاصد الكلّيّة للتّشريعات الإلهيّة

التي تضمّنتها الآيات [26-28] من سورة النساء

أ.د. عبدالسلام مقبل المجيدي

الأستاذ الدكتور عبد السلام مقبل المجيدي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن - كلية الشريعة - جامعة قطر
رئيس مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية

المقاصد الكلِّيَّة للتَّشريعات الإلهيَّة التي تضمَّنتها الآيات [٢٦-٢٨] من سورة النساء

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٢٦-٢٨].

مكانة هذه الآيات:

ذكر الله تعالى في هذه الآيات العظام الثلاث ستة مقاصد غائية أنزل الله القرآن لأجلها، وقال ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: (ثمان آيات نزلَت في (سورة النساء)، هي خيرٌ لهذه الأمَّة مما طلعَت عليه الشمس وغربت:

أولاهنَّ: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء: ٢٦).

والثانية: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٢٧).

والثالثة: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٨).

والرابعة: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النساء: ٣١).

والخامسة: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٠).

والسادسة: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (النساء: ٤٨، و١١٦).

والسابعة: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١١٠). **والثامنة**: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١٥٢). فأخبرهم ثمَّ أقبل يفسِّرها ابن عباس رضي الله عنهما في آخر الآية: (وكان الله للذين عملوا الذنوب غفورًا رحيمًا)[١].

ولماذا لهذه الآيات الثلاث بالذات هذه المكانة؟ لأن الله ذكر في هذه الآيات العظام الثلاث ستة مقاصد غائية أنزل الله القرآن لأجلها، وهي الآتية:

---

(١) شعب الإيمان ٩/ ٣٤٦.

المقصد الأعظم الأول: التبيين الإلهي لما تحتاجه البشرية مما لا تستطيع أن تدركه بنفسها بسهولة، وربما لا تستطيع إدراكه أبدًا. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾.

ولذا أظهر الله الهدف الأعظم من التشريعات الإلهية سواء في المواريث أو في حقوق السفهاء أو في حقوق النساء، ليتم التكريم الرباني للإنسان، فالتوجيهات الإسلامية هدفها البيان لما يحتاجه الإنسان من نظمٍ تشريعية في المجالات الحيوية الأولى والأخرى بيانًا لكيفيتها، وتفصيلًا لوسائلها وأهدافها، وتمييزًا لصورها وحقائقها، وتحديدًا لعوامل السعادة الفعلية والقولية وما يضادها، وانظر كيف أراد الله البيان التفصيلي لذلك، فقال:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ أي فصل لكم الأحكام السابقة في هذه السورة وفيما قبلها، وسيفصل لكم الأحكام اللاحقة في هذه السورة وفيما بعدها.. كل ذلك هدفه وغايته أن يبين لكم، أن يملككم المعرفة الحقيقية لما تجهلونه، ويخبركم عن العلم الحق لما لم تعلموه، فتكون اللام في قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ دالةً على محذوفٍ يبين قوة التعبير القرآني، والتقدير: أنزل الله لكم هذه الآيات، ووضع لكم هذه التشريعات ليبين لكم، أو أن يكون أقام (اللام) مقام (أن) كما قال الله جل ثناؤه: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام: ٧١) أي أن نسلم، وقال في موضع آخر: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَ﴾ (الأنعام: ١٤)، وكما قال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ (الصف: ٨)، ثم قال في موضع آخر: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾ (التوبة: ٣٢)، ومنه قولهم:

أَرَدْتَ لِكَيْمَا أَنْ تَطِيرَ بِقِرْبَتِي

فَتَتْرُكَهَا شَنًّا بِبَيْدَاءَ بَلَقْعِ

المقصد الأعظم الثاني: تكوين المعرفة التاريخية الحقيقية بسنن الأولين في الجوانب الإيجابية والسلبية لتهتدوا في ظلمات الحياة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى جده: ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾.

معنى ليهديكم أي يدلكم ويرشدكم فهي بمعنى البيان الذي سبق في قوله جل ذكره: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾، إلا أن المقصد الأول بيان عام لما تحتاجون من المعارف والسلوك والتنظيم، والهداية في هذا المقصد بيانٌ مصحوب بالحرص على الإرشاد، وقد يصحبه التوفيق والإعانة على العزم، وخصها بالمعرفة التاريخية، فهذا المقصد المأخوذ من هذه الجملة المباركة يعني أن يستفيد المسلمون من رصيد الخبرة البشرية المتراكمة في الجوانب الإيجابية ليكون عندهم أحسن ما آلت إليه التشريعات والتجارب السابقة، وليتقوا ما وقعت فيه الأمم من الخلل والزلل قبل مجيء النبي الخاتم ﷺ، ومن المعاني التي تظهر من هذه الجملة المباركة ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ بيان الدين الواحد عند الله، وهو الإسلام، وهو الدين الذي جاء به كل الأنبياء، وهذا الهدف هدفٌ معرفيٌ فيه حثٌّ شديد على استكشاف الحضارات السابقة في جوانبها الإيجابية والسلبية، فهو -عزَّ جارُه- يريد أن يرينا أن أصول ما جاء به الأنبياء أصولٌ متحدة؛ لأن الدين عند الله الإسلام، ومن هنا تعجب من هذه النبرة العَدائية التي يشنها أتباع اليهودية والنصرانية على المسلمين، كما تنظر بعين الريبة إلى تحالفهم مع القوى الباطنية والمنافقة والمستبدة التي تريد تفجير الإسلام من داخله، فالله يريد لنا المعرفة لسنن المنعم عليهم من السابقين لنحتذي بها، والمعرفة لسنن المغضوب عليهم والضالين لنتقيها.. الله يريد لنا تحصيل معرفة الخير والشر، وليس أن يحجب عنا المعرفة كما تروج الخرافات المضللة التي يشيعها الإعلام الكاذب المعادي للمصالح البشرية الضخمة التي يمنحها الوحي الإلهي، ومن المعرفة التي يريد الله أن نتعلمها المعرفة بتجارب الآخرين ليتم التراكم المعرفي، وتنضج الخبرة البشرية، ويستفيد الناس من الإيجابيات، ويجتنبوا السلبيات.

ومن إرادته البيان لنا وهدايتنا سنن الذين من قبلنا ما شرعه لنا من الأحكام في المجالات الحيوية المختلفة ليُبَصِّرُنا بالطرق التي بها تصلح المجتمعات، وتنمو عن طريقها السعادات، ومن ذلك تنظيم المسائل الحقوقية والأمور الاجتماعية، والمسائل الفرضية الإرثية، وإنصاف الفئات المستضعفة في المجتمع كاليتامى والنساء،

ولذا فإن سبب نزول السورة في المقام الأول هو إنصاف الأيتام والنساء فعن جَابِر بْن عَبْدِ اللهِ ﵄ قال: مَرِضْتُ مَرَضًا فَأَتَانِي النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُنِي، وَأَبُو بَكْرٍ وَهُمَا مَاشِيَانِ فَوَجَدَانِي أُغْمِيَ عَلَيَّ فَتَوَضَّأَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ صَبَّ وَضُوءَهُ عَلَيَّ فَأَفَقْتُ فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ أَصْنَعُ فِي مَالِي؟ كَيْفَ أَقْضِي فِي مَالِي؟ فَلَمْ يُجِبْنِي بِشَيْءٍ حَتَّى نَزَلَتْ آيَةُ الْمِيرَاثِ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾(١)، وكان له تسع أخوات حتى نزلت آية الميراث (٢)، وعَنْه ﵁ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى جِئْنَا امْرَأَةً بِالأَسْوَافِ، وَهِيَ جَدَّةُ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، فَزُرْنَاهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، ففَرَشَتْ لَنَا صَوْرًا -أي عيدان نخل- فَقَعَدْنَا تَحْتَهُ بَيْنَ نَخْلٍ، وَذَبَحَتْ لَنَا شَاةً، وَعَلَّقَتْ لَنَا قِرْبَةً مِنْ مَاءٍ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَتَحَدَّثُ جَاءَتِ امْرَأَةٌ بِابْنَتَيْنِ لَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ هَاتَانِ بْنَتَا سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ قُتِلَ مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَدِ اسْتَفَاءَ عَمُّهُمَا مَالَهُمَا وَمِيرَاثَهُمَا كُلَّهُ، فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالاً إِلاَّ أَخَذَهُ فَمَا تَرَى يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَوَاللهِ مَا تُنْكَحَانِ أَبَدًا إِلاَّ وَلَهُمَا مَالٌ. فَقَالَ: «يَقْضِي اللهُ فِي ذَلِكَ» فَنَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ وَفِيهَا ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةَ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ادْعُوا لِيَ الْمَرْأَةَ وَصَاحِبَهَا» فَقَالَ: «لِعَمِّهِمَا أَعْطِهِمَا الثُّلُثَيْنِ وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمُنَ وَمَا بَقِيَ فَلَكَ»(٣).

فكانت هذ السورة المباركة أهم دستور حياتي تم من خلاله التوزيع الحقوقي للفئات المجتمعية المختلفة، وأنصف النساء على وجه الخصوص، وسبق أدعياء العالم في وضع القوانين الحقوقية التي يجب على المجتمع رعايتها بالنسبة لهن، وهذا الإنصاف الحقوقي الذي بينته سورة النساء أوصى الله بقريب منه فيمن كان قبلنا، فأوصى في التوراة ببعض ذلك، لكنك لا ترى فيه كمال العدالة المسطرة في نور القرآن المجيد، فهل ذلك لتحريفٍ طارئ، أم لطبيعة التفاوت بين الوحي السابق والوحي الخاتم، فقد ورد في سفر العدد٢٧:

٦ فكلم الرب موسى قائلًا: ٧ بحق تكلمت بنات صلفحاد، فتعطيهن ملك نصيب بين إخوة أبيهن، وتنقل نصيب أبيهن إليهن. ٨ وتكلم بني إسرائيل قائلا: أيما رجل مات وليس له ابن تنقلون ملكه إلى ابنته.

(١) أخرجه البخاري في (١ / ٥٠) برقم: (١٩٤).

(٢) سنن الترمذي (٤ / ٤١٧).

(٣) سنن الدارقطني (٥ / ١٣٧)، وأصل الحديث في سنن الترمذي (٤ / ٤١٤).

وانظر كيف يهدينا الله سنن من قبلنا لنأخذ الإيجابيات ونترك السلبيات، بينما تجد عمومًا محتملًا في العبارة التوراتية الواردة في سفر اللاويين ١٨:

١ وكلم الرب موسى قائلا: ٢ كلم بني إسرائيل، وقل لهم: أنا الرب إلهكم. ٣ مثل عمل أرض مصر التي سكنتم فيها، لا تعملوا، ومثل عمل أرض كنعان التي أنا آت بكم إليها، لا تعملوا، وحسب فرائضهم، لا تسلكوا. ٤ أحكامي تعملون، وفرائضي تحفظون؛ لتسلكوا فيها، أنا الرب إلهكم. ٥ فتحفظون فرائضي وأحكامي، التي إذا فعلها الإنسان يحيا بها، أنا الرب. ٦ لا يقترب إنسان إلى قريب جسده؛ ليكشف العورة، أنا الرب.

فالنص التوراتي ينهى عن تقليد الكافرين في مصر وكنعان، ولا شك في صحة ذلك، لكن العبارة القرآنية فصلت ذلك لنأخذ الإيجابيات ونترك السلبيات من خلال هذه العبارة المبهرة ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾.

@Dr_Almajeedy /AlmajeedyDr
/Quranok Quranok.com

المقصد الأعظم الثالث: التوبة عند حدوث الإخفاقات، أو ارتكاب السيئات، ويُبَصِّرُنا بهذا المقصد قوله تعالى ذكره ﴿وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ (النساء:٢٦).

فهو سبحانه يريد التوبة علينا، ولا يريد الانتقام منا، وقد يسر سبيل التوبة، فجعلها تتم إما عن طريق إقامة الحد والعقوبة لمن بلغت جنايته أن يعاقب، ورغب في التطهير، وإما أن يطهر نفسه بالتوبة المباشرة بينه وبين ربه، دون أن يفشي ذنبه لأحد.

وتجد التعبير عن التوبة يأخذ ثلاث مراحل:

الأولى: يريد الله أن يتوب عليك قبل أن تفكر في التوبة، فيزينها لك، وعندها تأتي المرحلة الثانية لتكون المبادرة منك: فتتوب أنت من ذنبك، ثم المرحلة الثالثة: حيث يتوب الله عليك بعد أن تبت أنت من ذنبك، أي يقبل توبتك، فتوبة الله على عباده تحف به ابتداء وانتهاء، وتوبتك بين توبتين لله عليك، ومن ذلك قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١١٨).

وانظر هذا المعنى الجليل: الله يريد أن يتوب عليك، لذا شرع لك التوبة من الذنوب والسيئات، ولم يتركك دون قدرة على محو تلك الخطايا، وهنا تعرف معنى الجريمة في حق البشرية عندما يدعي بعض الخلق أن هناك خطيئة أصلية لزمت البشر؛ لأن أباهم آدم عليه السلام وقع فيها.. وما ذنبهم؟ لقد سببت هذه الفكرة إلحادًا في أوساط الناس، وآخر من صرح بتهافت هذه العقيدة الباطلة المعتدية الرئيس الفلبيني رودريغو دوتيرتي المحسوب على النصارى حيث قال: «لم تكن ولدت وقتها، ولكنك اليوم مدنّس بالخطيئة الأولى، ما هذا الدين؟ لا أقبل هذا؟».

المقصد الأعظم الرابع: بناء الثقة بمصدر التشريع، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء:٢٦).

هنا تعيد اكتشافك للمعجزة القرآنية.. إن ختم الآيات وتذييلها ليس مجرد مسألة تبعية تجميلية، بل الختم جزء أساسي من الآية يحقق هدفًا مقصودًا، وهنا فإن الله عليم بالجوانب الإصلاحية للحياة البشرية في الأمور الدينية، والدنيوية، وهو حكيم يضع الأمور في مواضعها، ويقيمها في مراتعها، حكيم في تنزيل ما يعلمه صالحًا لهم في وقته المناسب، ومكانه المناسب، يصلح عباده في دينهم ودنياهم وغير ذلك من أمورهم، وبما يأتون ويذَرون مما أحل أو حرم عليهم، حافظ ذلك كله عليهم، فإذا سمعتم تشريعاته التنظيمية والوقائية والعقابية ستثقون فيها، وستأتي الأوقات التي تبين لكم أنه لا يوجد أفضل منها مهما حاولتم، ولقد حاول بعض المتسرعين أو المستكبرين انتقاد بعض أنواع العقوبات التأهيلية في القرآن المجيد لكنك عندما تبحث في التجارب البشرية لا تملك إلا الإعجاب بالتقدم الذي أحرزه هذا التأهيل القرآني للمذنب، وللمجتمع معًا، وينبئك عن ذلك أن تقرأ ما نُشِر مؤخرًا حول شكل جديدٍ وغريبٍ من العلاج النفسي حيث يدعو إلى علاج مدمني الشراب (الخمر) والمخدرات والجنس عن طريق ضربهم بعصا كبيرة، حيث يمكنهم في ذلك المستشفى مقابلة مستشار للحصول على ما يصل إلى ٦٠ جلدة بعصا، وأعلن عن العلاج بالضرب الشديد بالعصا في علم النفس من قبل خبراء خلال محاكمات في سيبيريا بروسيا، ففي موعدٍ خاص يتم منح المرضى علاجًا بالضرب الشديد قبل أن يخضعوا لجلسات تقليدية يتم خلالها الكلام والتعبير عن مشاعرهم بطريقة بسيطة وعادية، وتم اقتراح هذا العلاج من قبل الدكتور سيرجي سبيرانسكي، مدير الدراسات البيولوجية في معهد نوفوسيبيرسك للطب، والذي أقر أن الضرب كعلاج يمكننا اعتباره مضادًّا للنوبات المعبرة عن الاكتئاب، مضيفًا أن المرضى يرون أن هذا العلاج فعالٌ إذا فشلت كلُّ الطرق الأخرى في العلاج.

المقصد الأعظم الخامس: حماية الناس من أتباع المحرم من الشهوات ومدمري المجتمعات، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٢٧).

الله تعالى ذكره، وجل مجده يريد لنا التنظيم المجتمعي، ويريد للأرض التطهير، ويريد التيسير أما أتباع الشهوات المحرمة فإنهم يعملون على سفك الدماء والإفساد في الأرض، ويرتكبون أحط الجرائم التي تؤدي إلى إبادة الإنسانية مخالفين القوانين الإلهية التي حددها خالق الإنسانية لحمايتها، وهذا المقصد تمت صياغته بصورة رائعة مدهشة حيث قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾.

فقد يقول قائل: لماذا جدد ذكر إرادته لأن يتوب على عباده مع أنه قد ذكرها في الآية السابقة؟

والجواب: لعدة مفاهيم كبرى، ومنها:

المفهوم الأول: ليذكرنا بأن الله يملك الكون، فله الملك المطلق والإرادة المطلقة إلا أن مقتضى الحياة الدنيا مقابل الحياة الأخرى الاختبار، ومقتضى الاختبار إيجاد الاختيار، ولذا ذكر إرادته الكونية والتشريعية مقابل إرادة أتباع الشهوات لا لأن إرادة أصحاب الشهوات غالبة أو ثالبة، بل لطبيعة حرية الاختيار التي تكفل العدل في نتائج الاختبار، وبذا بين أن هناك إرادتين: إرادة الله القاضية، والإرادة التي جعلها لخلقه فاختار بعضهم أن يحارب بها إرادة الله جهلًا وسفهًا وعدوانًا على نفسه وبني جنسه، إذ لو أراد الله تدمير معارضه لفعل ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ (الكهف: ٥٨).

المفهوم الثاني: ليذكرك بالطبيعة البشرية التي تجدد الوقوع في المعصية، وأن الإرادة الإلهية قائمة على التوبة الدائمة على أصحابها، بينما يريد أتباع الشهوات الميل العظيم.

المفهوم الثالث: التوبة هي الرجوع إلى الله بترك الذنب على أجمل الوجوه، فجدد ذكرها ليبين الحماية الإلهية من وقوع البشرية في أيدي أتباع الشهوات الذين يزينون الوقوع في آلام الخطيئات فهمًا أو عملًا، فكأن

البشرية تسير على جسر النجاة الحامي لها من السقوط فيأتي عُبَّاد الشهوات في ظلام الغفلة ليزينوا لها الميل عن الطريق القويم الواضح أمامها لتسقط في الهاوية الكبيرة.

فانظر كيف عبر عن هذه الحماية من أتباع الشهوات بإرادته أن يتوب على عباده.

وهذه الشهوات قد تكون شهوات مالية وقد تكون شهواتٍ جسدية وقد تكون شهواتٍ عقلية، وهذه الشهوات هي التي أوقعت العالم في التشريعات المجرمة العنصرية، وأوقعتهم في جاهليتهم الأولى والمعاصرة في تشريع إبادة البشرية من خلال إباحة الإجرام الجنسي مع الرجال والنساء الذي تراضوا على تسميته بالحرية الجنسية.

ويدخل في الذين يتبعون الشهوات كل من انطبق عليه الوصف من اليهود والنصارى والوثنيين والمنافقين ومرضى القلوب ممن ينتسب إلى المسلمين.

المقصد الأعظم السادس: إرادة الرحمة بالإنسانية بتشريع الأرفق بها، والأيسر عليها، والأخف لتتبعه؛ فتجد الحياة الدنيوية الطيبة، والسعادة الأخروية المنتظرة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ (النساء:٢٨):

فتشريعه لها في كل المجالات أخف عليها من كل النظم والتشريعات، وأوفق لفطرتها وطبيعة خلقها مهما بلغت خبرتها، ووصلت تجاربها، والإصرار على عدم تحكيم الشريعة تكلف الإنسان المشقات الحياتية الهائلة، وتجلب على البشرية الشقاء.. هل تريد الدليل؟ انظر حولك في هذا العالم الحزين كيف يموت الملايين في الحروب، والجوع والمرض فيما دهاقنة المنظمات الدولية، وكهان الأمم المتحالفة يجتمعون، ويأكلون ويشربون ويُصرِّحون ويتاجرون.

فالآية تدل على إرادة الله أن ييسر للإنسان أقصر الطرق في حياته من الأحكام والنظام؛ إذ الإنسان أضعف من أن يجد هذا الطريق اليسير بنفسه مباشرة فإن الإنسان يلجأ إلى الاستفادة من تراكم الخبرات بعد الخبرات عبر الأجيال للبحث عن نظمٍ أمثل أو أفضل وأحيانًا عن نظمٍ أشد مكرًا، وأخسر أمرًا، والله سبحانه يريد لنا التشريع لما نحبه بأخصر الطرق، وهذا المقصد الكبير يكرر الله ذكره في القرآن الكريم بأساليب مختلفة كقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: ١٥٧) وَقَوْله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥) وَقَوْله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨).

وبين الله سبب تعليمه لنا ما يوجب التخفيف فقال: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾وضعف الإنسان يستبين في جهات:

الجهة الأولى: ضعفه الذاتي أمام المعرفة الكونية نظرًا لعمره المحدود، وضعف خلقه مقارنة بما في الكون: فالإنسان فردًا لا يستطيع تعلم كيفية التعامل مع أبناء جنسه بسهولة، فكيف يطيق معرفة التشريعات اللازمة للتعامل مع الكون من حوله؟ بل إن الأجيال يحتاجون إلى تراكمٍ كبير في الخبرات على مدى القرون للوصول إلى بعض الحقائق الكونية ليقيموا عليها بناء تشريعيًا مناسبًا، فخفف الله عنا ذلك بأن بين لنا أهم التشريعات اللازمة لتحقيق النصر والنجاح على المستوى الفردي والجماعي.

الجهة الثانية: ضعف الإنسان أمام الإغراء الشهواني الجنسي حتى يغلبه على عقله؛ إذ داعية الشهوة قوية جدًا عنده بالنسبة للشهوات الجنسية، حتى روى ابن أبي حاتم عن طَاوُس: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ «أَيْ: فِي أَمْرِ النِّسَاءِ، وَقَالَ وَكِيعٌ: يَذْهَبُ عَقْلُهُ عِنْدَهُنَّ»، والمقصود شدة رغبة النساء في الرجال، ورغبة الرجال في النساء، وأنت ترى أن الشهوة تغلب على عقل المرء فربما تناول ما يضره ويدمره عندما يأخذ المحرمات، فبين الله الأحكام المناسبة للحفاظ على الحياة البشرية، والتي تحقق له الإشباع الشهواني في غير مضرة تعود عليه، وقيد الحصول على الشهوات المختلفة بما يجعل الحصول عليها سبيلًا للذة الدائمة لا المؤقتة الزائلة.

الجهة الثالثة: ضعف الإنسان أمام الشهوات المالية والزعامة الشخصية والجاه والتصدر مما يجرئه على السرقة والتلاعب المالي والاختلاس والفساد في التعامل مع المال العام والخاص.

فخفف الله عنه هذه الأثقال الهائلة التي يجدها بسبب ضعفه بأن شرع له التشريعات الصادرة عمن أحاط بالكون علمًا، ووضع له الأحكام المناسبة للحفاظ على الحياة البشرية، والتي تحقق له الإشباع الشهواني في غير مضرة تعود عليه

وهنا لا بد من ذكر قاعدة تفسيرية مهمة هي: العموم التقعيدي لا يحصره ضرب المثال التفصيلي، ويمكنك أن تقول: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السياق:

فعموم الألفاظ تجعلنا نحملها على عمومها، وورود مثال تفصيلي في السياق لا يعني حصر العموم عليه، ومن أمثلة ذلك أن الله تعالى ذكر أحكام النكاح والتخفيف في إلزام الحر بنكاح الحرة ثم قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ (النساء: ٢٨)، فأوهمت عبارة الطبري أن ذلك من أجل آخر حكم في السياق فقال: « يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾، يريد الله أن يُيسر عليكم، بإذنه لكم في نكاح الفتيات المؤمنات إذا لم تستطيعوا طولا لحرة ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾، يقول: يسَّر ذلك عليكم إذا كنتم غيرَ مستطيعي الطوْل للحرائر؛ لأنكم خُلِقتم ضعفاء عجزةً عن ترك جماع النساء، قليلي الصبر عنه، فأذن لكم في نكاح فتياتكم المؤمنات عند خوفكم العَنَت على أنفسكم، ولم تجدُوا طولا لحرة، لئلا تزنوا، لقلّة صبركم على

ترك جماع النساء»[1].. ولكن الصحيح أن هذه الآية تقعيدٌ عام لكل ما ورد قبل الآية مما يتعلق بأحكام الشؤون الاجتماعية وأحكام الأسرة وحقوق اليتامى في سورة النساء، وكذلك أحكام الأموال والشؤون الاستثمارية والعلاقات الأسرية والدولية التي بعدها.. بل إن هذه الآية تتعلق بالتشريعات الواردة في القرآن كله، فلا يقيد السياق لفظها، ولذا روى الطبري نفسه في هذا الموضع عن مجاهد: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ﴾ في نكاح الأمة، وفي كل شيء فيه يُسر»[2].

وهنا ربما تتساءل بلهفة: لماذا جاءت المقاصد في هذا الموضع من سورة النساء وبعد ذكر كثيرٍ من الأحكام التي تتعلق بهن؟ لماذا لم تذكر في أول القرآن المجيد أو في أول السورة بصورةٍ مباشرة؟

إنه الإعجاز القرآني في سرد الألفاظ والمعاني؛ فالسورة تتحدث عن الجنس الإنساني، وبثه في الأرض، وأتباع الشهوات يسيرون بالإنسانية نحو الدمار في الإباحية الكاملة، أو إشباع الشهوات في التجارة بثروات الأرض، وإيجاد الحروب لتزدهر تجارة الأسلحة في العالم،

وكذلك ترى الموضع المناسب لهذه المقاصد؛ إذ جاءت بعد الحديث عن ضوابط تكوين الأسرة التي ينبث منها الجنس البشري لأن الموضوع الشهواني أكبر موضوع يتم التلاعب به في زخرفة أتباع الشهوات الشيطانية.. ألا تراهم يزيفون الحقائق على الناس من خلال تزيين قضاء الشهوات بناء على رضا الطرفين، ورتبوا عليه التخفيف على البشر في القيود بإباحة الشيوع الجنسي، والعمل على الإشباع الشهواني، فكانت النتيجة شيخوخة المجتمعات، ونقصان عدد السكان في تلك الدول، فأراد الله أن يبين أن التخفيف في شرعه لا في شرع الذئاب البشرية، والمصلحة الإنسانية تكمن في النظام القرآني الضابط للعلاقات الاجتماعية الموازن بين جميع المصالح الجسدية والنفسية والعقلية والعاطفية، وليس بالغلو في جهة دون جهة.

---

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢١٥).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢١٥)، وكذا بين عموم هذه الآيات لما ورد في هذه السورة وغيرها ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات في٢/ ٢٦٧.